سيدة القصور [1]

وهذه قصة ثانية جميلة يقدمها لقراء العربية الأستاذ الشاعر الكبير علي الجارم بك ، و « سيدة القصور » وسابقتها « شاعر ملك » تكشفان لنا عن ملكة جديدة للجارم بك لم نكن نعرفها فيه من قبل ، فقد كان الشعر أساس مجده الأدبي حتى اليوم ، ولكن هاتين القصتين أظهرتا أنه قاص مجيد ، فيجدر لو توفر على هذا النوع من الانتاج الأدبي فأخرج للقراء القصص الكثيرة ، وبخاصة أنه يستوحي في قصصه صفحاً من تاريخنا المجيد فيجد هذه الصفحات حية قوية .

وقد أجاد الكاتب في عرض حوادث القصة ، وفي صياغة الحوار ، وأسلوبه جميل قوي ، ولا غرو فهو أسلوب شاعر عظيم ، استمع الى هذه القطعة الصغيرة من القصة ، وهي جزء من حديث الشاعر عمارة الى سيدة القصور .

— « يا مولاتي ... إننا معاشر الشعراء نرى الغور بعيون من الفن لا يبصر بها سوانا . نرى الجمال فنذهب بخيالنا في روضاته فيكشف لنا عن بدائع لا تراها العيون ... نحن نعيش في دنيا غير دنيا الناس ، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس . إن الحسن أحياناً يتحدى الشعر ، وقد يعجز الخيال ، وقد يبهر العين كما يهرني ، ولكنا لا نلقي أمامه السلاح أول مرة ، ولا نستسلم خاضعين ، بل نأخذ في إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين ، مبيناً أو غير مبين ، ثم نصيح كما يصيح المحموم ، حتى نخفف من ثورة قلوبنا ، والا قتلنا الحب ، ورحنا شهداء النظرات القاتلة ، والبسمات الفاتنة .. الخ .. الخ .

وبطلة القصة « سيدة القصور » عمة الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد ، وهي شخصية قوية ، وعقلية جبارة ، كانت لها السيطرة على البلاط الفاطمي في آخر أيامه ، وبطل القصة الشاعر المعروف عمارة اليمني ، وموضوعها عرض تاريخي للحوادث التي انتهت بزوال الدولة

(١) تقدم كتاب من تأليف الاستاذ علي الجارم بك ، دار المعارف القاهرة

الفاطمية . غير أني لاحظت أن الأستاذ المؤلف تحرَّر كثيراً من قيود الرقة العلمية عند عرض الحوادث ، ولم يرجع للأصول التاريخية المعاصرة لتحقيق الأحداث التاريخية التي اتخذها أساساً لقصته :

١ — فهو قد عرض في قصته لشخصية الواعظ زين الدين بن نجا ، وجعل هذا الواعظ رجلا يمنيًّا اسمه « الحراني » من أسرة يمنية وضيعة، وصوَّره عدوًّا لمواطن عمارة لثارات كانت بين الأسرتين ، ثم نقل الرجلين الى القاهرة ، وذكر ان الحراني عاش في مصر متكراً يسمى نفسه « زين الدين بن نجا » ويشتغل بالوعظ ، ويكيد في الخفاء لعمارة ، ثم ارتحل به الى الشام ، وعاد به في مؤخرة جيش أسد الدين شيركوه .

والمتفق عليه حقًّا بين كتَّاب القصة التاريخية أنهم يستطيعون التصرف ، بعض الشيء في الحوادث التاريخية ، وخلق شخصيات تكمل الصورة الفنية التي يبغون لإحيائها ، ولكنهم مطالبون دائماً بمراعاة الدقة عند عرض الحوادث التاريخية الهامة ، وتصوير أبطال القصة ، ووصف خلقهم وخُلقهم وملابسهم وقصورهم وعاداتهم.. الخ ، لذلك يبذل كتَّاب القصة التاريخية الجهد كل الجهد في مراجعة الكتب المعاصرة لتخرج قصصهم كاملة من هذه الناحية،أي تصوير العصر الذي يكتبون عنه خير تصوير وأصدقه ، فهل فعل الجارم بك هذا عند كتابة « سيدة القصور » ؟ لقد نقلنا للقارىء الكريم ما ذكره عن زين الدين بن نجا ولكن المراجع المعاصرة تذكر أن ابن نجا لم يكن اسمه « الحراني » بل اسمه الكامل : « ابو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الانصاري الملقب زين الدين الحنبلي المعروف بابن نجية الواعظ » ،ولم تذكر هذه المراجع انه كان يمنيًّا ، بل تذكر انه فقيه ولد في دمشق سنة ٥٠٨ هـ ونشأ بها ، وارتحل الى بغداد مراراً ثم انتقل الى مصر وحدَّث بها ، وتوفى في مصر في ثامن رمضان سنة ٥٩٩ هـ (انظر ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ وابو شامة ،الروضتين ، ج ١ ص ٣٣٩ وج ٢ ص ٢١ ، ٥٧ — ٥٨) .

٢ — الصورة التي رسمها الجارم بك لزين الدين بن نجا صورة كريهة فقد جعله عالماً متآمراً حقوداً دساساً . . الخ ، وهذا كله مصدره الخطأ السابق ، في حين أن المراجع المعاصرة كلها تكيل لزين الدين المدح وتنعته النعوت الطيبة .

٣ — ذكر الأستاذ المؤلف أن عمارة وفد على مصر سفيراً من لدن أمير مكة فذهب الى القصر الخليفي ، وألقى بين يدي الخليفة الفائز قصيدته العصماء :

المجد ليس بعد العز والنعم حمداً يقوم بما أوليت من نعم

ثم استقرّ في مصر بعد ذلك ، واتصل بالبلاط الفاطمي ، والوزراء الفاطميين ، وقال في الجميع المدائح الكثيرة ، ثم لعب دوره المشهور في الحوادث السياسية التي انتهت بزوال الدولة الفاطمية . والذي تذكره المراجع أن عمارة وفد على مصر رسولاً من قبل أمير مكة مرتين : الأولى وهي التي أنشد فيها القصيدة سنة ٥٥٠ هـ ، والثانية في سنة ٥٥١ هـ ، يقول عمارة نفسه في كتاب « النكت العصرية » ص ٣١ — ٣٢ :

« خرجت حاجًّا بل هاجًّا الى مكة سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فليتة ذوي الحرمين ولده قاسم بن هاشم فألزمني السفارة عنه ، والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمس مائة والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما أحضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب ... أنشدتهما قصيدة » . . (ثم يذكر القصيدة السابقة)

ويذكر عمارة بعد ذلك خبر عودته الى وطنه اليمن ، وانه حجّ الى مكة ثانية في سنة ٥٥١ هـ الى أن يقول في ص ٤١ — ٤٢ : « وهممت بالرجوع الى اليمن فألزمني أمير الحرمين بالترحل عنه الى الملك الصالح بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام ... فخرج الأمر من عند الصالح الى الوالي بقوص أن يعوقني بقوص ولا يأذن لي في الرجوع ولا في القدوم الى باب السلطان حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار ، وقيل ذلك ما نقل الى الصالح عني أني طعنت في مذهب الامامية ... ثم أذن لي الصالح في القدوم الى الباب ... »

وبعد هذه السفارة الثانية استقرّ عمارة في مصر وكان من أمره ما كان...

٤ — قال الأستاذ لنجارم بك في قصته ص ١٣٩ : « وبعد يوم استدعى الخليفة القاضد أسد الدين الى القصر وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالمنصور فغضب شاور لعزله من الوزارة .. الخ » فكأنه بهذا يثبت أن أسد الدين ولي الوزارة للعاضد وشاور حي ، بينما المراجع المعاصرة كلها تذكر انه لم يل الوزارة إلاّ بعد قتل شاور ، يقول أبو شامة مثلاً في الروضتين ج ١ ص ٥١٨ :

« فصل في وزارة أسد الدين ، وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر ، أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها ، وسار وادخل القصر ، ورتب وزيراً ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة منزلها . . الخ »

٥ — يقول الأستاذ المؤلف ص ١٢٠ : « وما هي إلاّ أيام حتى دخل شاور القاهرة ، وفرّ رزّيك إلى المشيخ ، وتمكن منه شاور وقتله . . . الخ » ، وصاحب الروضتين

ينقل في ج ١ ص ١٦٥ عن يحيى بن أبي طي — وهو مؤرخ فاطمي — ما يلي : « وجمع — أي شاور — العربان وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة ... فخرج رزيك لنصف الليل فضل الطريق وتاه عند الصباح ، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه ، وحمل إلى شاور ، ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به ، ونادى عليه : « هذا جزاء من لا يرعى الجميل » . . وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك ، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة ، واتصل ذلك بطي بن شاور فدخل على أبيه وقال له : أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك ، وقد شرعا في أمر رزيك ، واستحلفا له جماعة من الأمراء ، ولا يمكن تلافي حالك إلا بقتل رزيك » فقال له شاور : « إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هذا المحل » فتركه ولده طي ، ودخل على رزيك فقتله في سجنه ، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته .. الخ »

٦ — قال الأستاذ الجارم بك ص ١٢٤ عن المقابلة الأولى بين شاور ونور الدين في الشام : « ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصاء في صدر الخيمة ، وفي يده سبحة تتحرك حباتها بحركات لسانه ، وقد جلس إلى يمينه العلماء والفقهاء والمحدثون ... الخ » والذي يذكره صاحب الروضتين ج ١ ص ١٦٥ أن المقابلة تمت في الميدان الأخضر بدمشق ، قال : « وركب نور الدين في نفر من وجوه دولته ... فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق ، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط ، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره .. الخ »

* ***

وبعد فهذه بعض صور من القصة رأينا الأستاذ المؤلف يبعد فيها عن الحقائق التاريخية بعداً يسيء إلى هذه الحقائق التاريخية نفسها .. دون مبرر يقتضيه العرض الروائي أو الحبكة القصصية .. ، ترى هل يقرني أعلام القصة التاريخية في مصر على هذا النقد .. ؟ إني أكون جد مسرور لو تكرم بعض هؤلاء الأعلام وخاصة زعيمهم أستاذي الجليل محمد فريد أبو حديد بمناقشة هذا المبدأ .

جمال الدين الشيال
مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة فاروق الاول